مطلوب مواقف أخلاقية وسياسية أيضاً

د. علي محمد فخرو

■ لبنان العظيم، الذي لا يمسُّ الحياة إلاّ ويدُخل فيها الحيوية والحركة والطموح، لايحتاج فقط للمواقف الأخلاقية لدعمه في صموده البطولي الأسطوري أمام جحافل الآلة الصهيونية النازية، ولكنه يحتاج أيضاً للمواقف السياسية. والفرق بين الموقفين كبير وبالغ الأهمية بالنسبة للنتائج. نحن هنا نتكلم عن مواقف الشعب العربي وليس أنظمته الحاكمة، فهذه فقدت القدرة على إتخاذ أيٍّ من الموقفين. فلا عجزها وعمى بصيرتها سيمكّنانها من إتخاذ مواقف سياسية فاعلة ولاغياب إنسانية الإنسان في أحشاء أغلب مسؤوليها سيسمح باتخاذ مواقف أخلاقية.

فالحديث هنا يتوجه إلى مواقف الشارع العربي كمؤسسات وكأفراد. فحتّى الآن لم تزِد مظاهراته الخجولة المحدودة عن أن تكّون مواقف أخلاقية تندّدٍ بالعدوان وتستهجن موقف العالم الغربي اللاأخلاقي وتحيّي المقاومة العظيمة الباسلة في لبنان وفلسطين والعراق. ولكن هل هذا هو ما يحتاجه الشعب العربي في تلك البلدان وهو في محنته الحالية مع البربرية الصهيونية والاستعمار الامريكي الداّعم لها؟ فمثل هذا عبّرت عنه حشود أكبر خرجت في باكستان وتركيا واندونيسيا وأوروبا، بل وحتّى في تل أبيب.

لكن المطلوب هي مواقف سياسية لها أهدافها وشعاراتها والنضال اليومي المستمر غير المنقطع من أجل تحقيقها في الحال. المطلوب ليس إيقاف العدوان فقط وإنما استعمال المناسبة لقلب الطاولة على الصهاينة والامريكيين، وعلى مشروعهم السياسي برمتُّه، وهي مناسبة لن تتكرر.

مطلوب من الشعب العربي أن تخرج مظاهراته، وأن تتحولُ إلى اعتصامات ومواجهات إن لزم الأمر، لإغلاق السفارات الصهيونية حيثما تكون، لإغلاق المكاتب التجارية الصهيونية حيثما تكون، لسحب السفراء العرب من تل أبيب، لإعادة مكاتب المقاطعة العربية التي أغلقت، لفسخ الإتفاقات العسكرية مع امريكا حيثما أبرمت، لإنهاء وجود المعسكرات والتسهيلات الامريكية حيثما وجدت. هذه المطالب السياسية كان يجب أن تطرح منذ اليوم الأول وتخرج المظاهرات الحاشدة يومياً وليل نهار للإصرار على تنفيذها كردٍّ على التفوق العسكري الصهيوني ـ الامريكي الهائل. وعند ذاك، عند ذاك فقط، كان العدوان سيتوقف وسيتردّد الصهاينة والامريكيون ألف مرّة قبل أن يستبيحوا، بنذالة وهمجية حيوانية وتصرًّفات شيطانية حقيرة، أرواح الأطفال والنساء والشيوخ العزّل وما بنته تلك المجتمعات بعرقها عبر القرون وذلك في سعيهم الجبان لإعادة الأرض العربية وأهلها قروناً للوراء.

لا يحتاج هذا الثمن الذي يجب أن تدفعه الصهيونية والولايات المتحدة الامريكية لجيوش وأسلحة بل لوجود شارع عربي منظّم مجيّش متحرك نحو أهداف محدّدة واضحة قابلة للتحقُّق.

لكن ذلك لم يحدث ولا يحدث، لأنّ القوى السياسية المجتمعية العربية لم تعرف قط كيف تمارس السياسة المؤسساتية الشعبية وفي مقدّمتها إعداد أناس الشارع العربي، عبر سنين وعقود وليس أياماً معدودات، لمثل هذه الأيام البائسة التي نعيشها الآن. ومع ذلك ستكون كارثة أخلاقية وسياسية لو أننا توقفنا عن طرح مثل تلك المطالب والنضال اليومي من أجلها حتى ولو توقّف العدوان الأمريكي ـ الصهيوني المباشر الحالي علينا. ذلك أن المعركة مع تلك الجهتين يجب أن تستمر حتى إفشال مشروعهما السياسي ـ العسكري المشترك، وإلاّ فان ما يحدث الآن في فلسطين ولبنان والعراق سيتكرّر مرّة تلو الأخرى. مطلوب أن تدرك امريكا والصهيونية أن الدّم الذي أريق بأعصاب باردة سيكون له ثمن باهظ.

مرة أخرى نذكّر: المواقف الأخلاقية يستجيب لها الناس بعفوية وبسهولة لأنهّا تمسّ إنسانية الإنسان، لكن المواقف السياسية تحتاج إلى إعداد وتهيئة وإقناع عبر سنين طويلة، وبأناس لايتعبون ولا يملون ولا يتساقطون على الطريق. عند ذاك ستصبح أنظمة الحكم العربية أداة تنفيذ لإرادة الشارع العربي المسيّس المنظّم الواعي ولن تستطيع أن تقف مماّ يحدث في لبنان وفلسطين والعراق موقف المتفرج البائس الذي نشاهده ونحن مشدوهون. مأساة العالم ومأساتنا أن المواقف أصبحت أخلاقية فقط، على أهميتها، وليست سياسية وأخلاقية معاً ولذلك لا يتزحزح الظالمون.

رأي القدس

الحريري وقلب الأولويات

■ لا نعتقد ان السيد سعد الحريري رئيس كتلة المستقبل ونجل رئيس الوزراء الراحل كان موفقاً في تصريحاته التي ادلى بها الى محطات تلفزيون اجنبية، وقال فيها ان المهم الآن وقف اطلاق النار في لبنان ثم بعد ذلك نحاسب المسؤول عن هذه الأزمة، ملمحاً ضمنياً الى المقاومة الاسلامية بزعامة «حزب الله».

فالسيد الحريري لا يستطيع محاسبة «حزب الله» لانه غير قادر على هذه المهمة، وغير مؤهل لها. فالجيش اللبناني لا يتبع للحكومة، وانما للرئيس اميل لحود الذي يعتبر من اشد حلفاء المقاومة الاسلامية، وابرز المؤيدين للعمليات الفدائية الرامية الى اسر جنود اسرائيليين لاستخدامهم كورقة ضغط للافراج عن الاسرى اللبنانيين في سجون الاحتلال.

ولا بد من الاعتراف في الوقت نفسه بان انتقاداته لسورية، وعدم فتحها لجبهة الجولان، واستخدامها لبنان كساحة مواجهة لمحاربة اسرائيل تجد بعض الصدى في اوساط الكثير من اللبنانيين المعارضين للمقاومة ولسورية في الوقت نفسه، ولهذا السبب باتت هذه الانتقادات العمود الفقري لكل تصريحات ومقابلات السيد الحريري في اجهزة الاعلام العربية والعالمية.

ويظل من غير الحكمة، وفي مثل هذا الظرف الذي يمر فيه لبنان، تحميل سورية مسؤولية العدوان الاسرائيلي بطريقة مباشرة او غير مباشرة، وتركيز الهجوم عليها بالذات، بدلاً من التركيز على العدوان الاسرائيلي الذي دمر البلد بكامله، وتسبب حتى الآن في مقتل اكثر من ثلاثمئة شخص من المدنيين الابرياء.

فالدولة العبرية تستغل مثل هذه المواقف العربية بشكل بشع لتبرير عدوانها الحالي على لبنان، مثلما فعلت بالموقفين السعودي والمصري، حيث وظفتهما في خدمة مخططاتها الحالية في لبنان.

فالصحافة العبرية احتفت باقوال المتحدث الرسمي السعودي الذي حمّل «حزب الله» مسؤولية الأزمة الحالية، ونفى عنه صفة المقاومة، واتهمه بطريقة غير مباشرة بتنفيذ اجندات ايرانية في لبنان.

المطلوب الآن التركيز على الاسرائيليين واستخدامهم لآلتهم العسكرية الجبارة لتدمير لبنان، وكيفية حشد المجتمع الدولي ومؤسساته للتوصل الى وقف سريع لاطلاق النار، لانقاذ ما يمكن انقاذه مما تبقى من لبنان وبناه التحتية.

انتقاد سورية و«حزب الله»، علاوة على كونه يحرف الانظار عن الجرائم الاسرائيلية، يلحق الضرر بصاحبه في الأوساط العربية والاسلامية، ويظهره بمظهر المتواطئ مع العدوان الاسرائيلي، ولا نعتقد ان السيد الحريري كذلك.

ان كظم الغيظ هو ابرز صفات السياسي الناجح، لان الكلمة سلاح يمكن ان تفيد اذا ما استخدمت في الوقت المناسب وبالطريقة المناسبة، ويمكن ان ترتد على صاحبها بشكل مدمر اذا استخدمت بالشكل الخطأ والتوقيت الخطأ.

ثلاث دلالات على انفجار الصراع على الجبهة اللبنانية

د. بشير موسى نافع *

■ واحدة من أبرز دلالات العدوان الإسرائيلي الشامل والمستمر منذ أسابيع على قطاع غزة كان الحشد الإسرائيلي السياسي (من حزب العمل إلى أقصى اليمين) والشعبي خلف العدوان بحيث يمكن القول ان الرأي العام الإسرائيلي موحد إلى درجة عالية خلف حكومته. وما ان وقعت عملية حزب الله وبدأت الهجمة الإسرائيلية المدمرة والوحشية على لبنان حتى ارتفع مستوى الاصطفاف الإسرائيلي خلف الحكومة والجيش ومسلسل العدوان. بل ان الاتجاه الإسرائيلي الأغلب كان الدفع باتجاه إعطاء الجيش الفسحة الكافية لاستخدام أقصى ما يمكن من قوة لتدمير حزب الله وتدمير لبنان ككل. ليس هناك من شك في ان أصواتاً إسرائيلية، صحافية وغير صحافية، اعترضت على نهج التصعيد والعنف المدمر الذي سلكته الحكومة والجيش الإسرائيليين. ولكن هذه الأصوات كانت قليلة وهامشية؛ وفي الحالات القليلة التي سجلت فيها هذه الأصوات والكتابات أغرقت عناوين الصحف الصارخة الداعية إلى القتل والدمار الهوامش النادرة الداعية إلى التعقل والتفاوض. على مدى أسابيع، أطلقت الدولة العبرية بقرتها المقدسة، المعروفة باسم «جيش الدفاع الإسرائيلي»، تنشر الموت والحريق في فلسطين ولبنان. الطائرات والدبابات والمجنزرات وآلات الجرف العملاقة تقتلع الأشجار وتحول المزارع في مختلف أنحاء قطاع غزة إلى صحراء؛ تحطم البيوت وتقصفها على رؤوس قاطنيها، وتقتل الأطفال والعائلات بلا تمييز، تدمر محطات الكهرباء والجسور، وتستهدف المسافرين في عرباتهم، من حي الشجاعية إلى قرى الجنوب اللبناني.

الهجمتان اللتان تعرض لهما الجيش الإسرائيلي كانتا عمليتي حرب بامتياز؛ أغارت فيهما قوى مقاومة مسلحة على مواقع لجيش معاد كان يستهدف شعبيهما، انتهت إلى قتل عدد من أفراد هذا الجيش وأسر آخرين. وكان الهدف في الحالتين هو تبادل الأسرى الذين لم يؤخذوا في الاعتبار، لا بعد توقيع اتفاق أوسلو ولا بعد الانسحاب الإسرائيلي من جنوب لبنان. إن كانت النية الإسرائيلية هي نهاية الصراع فليس ثمة سلم (أو حتى هدنة حرب) في التاريخ الحديث لم يصاحبه تبادل لأسرى الجانبين، بغض النظر عن عددهما. ولكن السجون الإسرائيلية تضم أسرى فلسطينيين ولبنانيين قضى بعضهم أكثر من ربع قرن في زنزانات الأسر، لم تلفت مأساتهم نظر أحد من منتقدي العمليتين الفلسطينية واللبنانية. وقد جاء الرد الإسرائيلي خليطاً من الرد العسكري على حماس وحزب الله، والرد الشامل غير التمييزي على الأهالي والمنشآت المدنية والطرق ومظاهر الحياة الإنسانية. ما كان العالم يتهم به القوى الفلسطينية من قبل باستهداف المدنيين الإسرائيليين، وما كانت أصوات الأكاديميين وقادة الرأي العام الإسرائيلي يصفونه بالوحشية الفلسطينية، هو ذاته ما يمارسه الجيش الإسرائيلي في الاستجابة لعمليتين عسكريتين من الطراز الأول.

هذا الجيش هو جيش الدولة العبرية، جيش يأتمر بأمر حكومة إسرائيلية منتخبة، جيش الشعب الإسرائيلي. الدمار والموت الذي ينشره هذا الجيش في أنحاء القطاع والضفة ولبنان ينشره باسم الشعب الإسرائيلي، باسم أكاديمييه ومدرسيه، باسم عماله وطلابه، باسم كتابه وفنانيه؛ ولكننا لم نسمع الكثير من هؤلاء يحتجون على ما يرتكب باسمهم من أعمال. في الساحة الفلسطينية، وبالرغم من المظلمة التي يتعرض لها الفلسطينيون منذ قرن متصل من الزمان، وبالرغم من اتساع نطاق الموت الذي طال مختلف فئات الشعب الفلسطيني منذ بداية الانتفاضة الثانية، فإن العمليات الاستشهادية أثارت جدلاً واسعاً في الدوائر السياسية والثقافية الفلسطينية. بعض من كبار السياسيين والمثقفين وأهل الرأي الفلسطينيين، بل والعلماء العرب، اعترضوا على العمليات الاستشهادية، حتى ومنفذوها يرون فيها وسيلة للردع ويعرضون وقفاً متبادلاً لاستهداف المدنيين. وليس هناك من شك في ان هذا الجدل ساهم مساهمة مباشرة في تخلي القوى الفلسطينية عن هذه العمليات. ولكن ما شهده العرب والعالم خلال الأسابيع القليلة الماضية على شاشات التلفزة، وما قرأوه من ترجمات الصحف الإسرائيلية، كان غريباً ومدهشاً وقاتماً إلى حد كبير. أكاديميون وكتاب وباحثون إسرائيليون كبار يرددون كالببغاوات نفس الخطاب الذي تبناه كبار ضباط جيشهم، من أسطورة الدفاع عن الوجود إلى لغو تحطيم حماس وحزب الله. أي شعب هذا الذي يتحول في لحظة إلى صدى أعمى لآلته العسكرية البربرية، وأي ديمقراطية هذه التي لا تختلف أطرافها إلا على أفضل الطرق لهزيمة العرب وإبادتهم، وأي سلام وتعايش يمكن التوصل إليهما بين هذا الشعب وجواره العربي والفلسطيني والمسلم؟ عندما يختصر شعب وجوده في محيط غريب عنه بوسائل الحرب الدمار والإبادة يقوم في الحقيقة بوقف هذا الوجود على معادلة الصراع الدائم؛ والتاريخ الإنساني لم يعرف بعد إسبارطة مؤبدة، إسبارطة لا تهزم.

الدلالة الثانية هي دلالة عربية بامتياز. فبعد صمت عربي قلق عن الحملة الإسرائيلية الموجهة ضد الفلسطينيين، جاءت عملية حزب الله لتشعل الجبهة اللبنانية وتضع المشرق كله على حافة الحرب، وهو ما لابد ان يثير التساؤلات حول هشاشة السلم والاستقرار الذي تعيشه أي من دول المنطقة. ثمة عدد من الاتهامات التي وجهت لحزب الله، يتعلق بعضها بتسخيره لخدمة استراتيجيات سورية وإيرانية، ويتعلق بعضها برهنه لبنان كله لصالح التحالف مع قوى المقاومة الفلسطينية وتحميل لبنان ما لا يحتمل من أعباء الصراع العربي ـ الإسرائيلي، ويتعلق بعضها الآخر باستخدام حزب الله ورقة الأسرى لخلط الأوراق في الساحة السياسية اللبنانية. قد تكون هذه الاتهامات (أو يكون بعض منها) صحيحة؛ ولكن المعنى الحقيقي لعملية حزب اللة، حتى إن وضعنا الاتهامات الموجهة له في الاعتبار، ان الصراع على فلسطين ليس صراعاً فلسطينياً ـ إسرائيلياً وحسب، بل هو صراع عربي ـ إسرائيلي كذلك. بدأ الصراع هكذا، وبالرغم من محاولات العديد من الأنظمة العربية والمحاولات الأمريكية والإسرائيلية المستمرة لفصل المسألة الفلسطينية عن المحيط العربي، لا تزال قواعد الصراع على ما كانت عليه.

سواء أرادت الرياض والقاهرة وعمان أم لم ترد، سواء أيدت أحزاب ما يعرف بـ14 آذار أم لم تؤيد، سواء قبلت باريس وواشنطن أم لم تقبل، فحزب الله حقيقة موضوعية، ولدت من سنوات الصراع الطويلة في لبنان وعليه، ومن التهديدات الإسرائيلية لحياة اللبنانيين والاحتلال الإسرائيلي لقطاع واسع من الأرض اللبنانية. هذا الحزب، الذي أوقع هزيمة بالغة بالاحتلال الإسرائيلي وحرر الأرض اللبنانية، هو بالفعل في تحالف موضوعي مع سورية وإيران والقوى الفلسطينية. وعندما تكون الدولة العبرية مصدر تهديد لحياة ومقدرات حلفاء حزب الله فهي مصدر تهديد تلقائي للحزب كذلك. ولبنان هو بالتالي طرف في معادلة الصراع، وهو طرف موضوعي، لم يتآمر أحد أو جهة لوضعه هذا الموضع. ولا مفر للبنان من مجريات هذا الصراع، مهما حاول هذا الطرف أو ذاك من جهد سياسي أو غير ذلك؛ ليس فقط لاعتبارات الجغرافيا الثابتة التي لا يستطيع أحد تغييرها أو تبديلها، ولكن أيضاً لاعتبارات الشعب وانتماءاته القومية والعقدية. ما قد تستطيعه إدارة لبنانية كفؤة، على أكثر تقدير، هو التقليل من أعباء وكلفة ارتباطه بساحة الصراع؛ أما التخلص منه نهائياً فهدف يستحيل تحقيقه.

بعض اللبنانيين يرون ان ارتباط لبنان الوثيق بمجريات الصراع العربي ـ الإسرائيلي هو نتاج لضعف لبنان. وقد يكون لبنان أضعف من دول أخرى في جواره؛ ولكن افتراض التلازم بين صغر لبنان وضعفه من ناحية وأعباء الصراع العربي ـ الإسرائيلي الملقاة على عاتقه من ناحية أخرى هو افتراض تبسيطي. فكل الدول العربية والإسلامية، لاسيما تلك القريبة من بؤرة الصراع، الكبير منها والصغير، من وقع منها اتفاقية سلام مع الدولة العبرية ومن لم يوقع، ومن يقف في معسكر المانعة ومن يقف خارجه، يتحمل هذا القدر أو ذاك من أعباء الصراع. ولا مفر لأحد من هذا الوضع القائم بلا تغيير جوهري يذكر منذ ولادة الدولة العبرية. البعض، كسورية، يدفع ثمن هذا الصراع سياسياً واقتصادياً، ومن مرحلة إلى أخرى، عسكرياً أيضاً. والبعض، كمصر والأردن والسعودية وتركيا، يدفع الثمن اقتصادياً، كما يدفعه من استقلال قراره السياسي ومن المخاوف الدائمة من فقدان الاستقرار والأمن الداخليين. والبعض الآخر، كإيران، يدفعه على مستويات متعددة. بولادة الدولة العبرية تعرضت البنى التاريخية للمنطقة وشعوبها للاضطراب: البنى الديمغرافية، السياسية، الاقتصادية، نظام العلاقات، معنى الاستقلال، ومرتكزات الهوية وتعبيراتها من ميراث ثقافي وديني. وهذا الخلل والاضطراب البنيوي لا يمكن التخلص منه بتجاهله، أو حتى مداراته بالخضوع له. الاضطراب يولد الاضطراب ويؤبده. وقد أوضحت الحالة اللبنانية بما لا يدع مجالاً للشك ان المنطقة تقف دائماً على حافة الحرب، بغض النظر عن صمت النظام العربي عن ما يتعرض له الفلسطينيون أو دعمهم لهم.

خلال السنة أو السنتين الأخيرتين شهدت المنطقة العربية إحياء واسع النطاق لخطاب العزلة الإقليمي، الذي كان العرب تعرفوا عليه للمرة الأولى في الفترة السابقة على واللاحقة لتوقيع معاهدة السلام المصرية ـ الإسرائيلية. بعض من يطلقون خطاب العزلة الإقليمي سياسيون رسميون، وبعضهم ينتمي للمعارضات العربية الليبرالية الجديدة، والبعض الآخر إسلاميون ـ ليبراليون. يحمل هذا الخطاب وجوهاً متعددة، من مثال «الاردن أولاً»، إلى مقايضة الموقف من المسألة الفلسطينية بالمشاركة في كعكة الحكم والسلطة، إلى محاولة استجداء الدعم الأمريكي بتقديم أوراق الاعتماد إلى طاولة السلام مع الدولة العبرية، إلى هموم الاتهام بالإرهاب والمحافظة على السلطة والحكم. وليس ثمة شك ان خطاب العزلة الإقليمي هو أيضاً خطاب رئيس الوزراء اللبناني وحلفائه. يشي هذا الخطاب بقصر نظر تاريخي، عجز عن رؤية الواقع الموضوعي، وعجز أشد وقعاً عن قراءة تاريخ المنطقة وتواريخ تعامل شعوبها مع الغزوات الخارجية، والمصير الذي انتهت إليه هذه الغزوات.

الدلالة الثالثة هي أيضاً دلالة عربية، ولكنها دلالة لا تحتاج تحليلاً واستنتاجاً فقد أعلنت صريحة واضحة باسم مجلس الجامعة العربية. ففي ختام اجتماعهم القصير بالقاهرة، فشل وزراء الخارجية العرب في تقديم دعم سياسي ما لفلسطين ولبنان؛ ولكنهم في الآن نفسه أعلنوا فشل عملية السلام. وهو إعلان مبطن بفشل السياسة الأمريكية نفسها، الذي جاء موقف وزراء الخارجية السلبي من حماس وحزب الله استجابة لضغوضها. إن كانت عملية السلام التي تقودها الولايات المتحدة قد فشلت، بعد ان سلمت بقضها وقضيضها للدولة العبرية، فإن هناك ما يبرر النهج الذي تنتهجه القوى الفلسطينية واللبنانية. ولكن الأمور في مجلس وزراء الخارجية العرب لا تجري بمنطقها. المهم، على أية حال، أننا الآن، وللمرة الأولى منذ مؤتمر مدريد، أمام موقف عربي إجماعي بفشل عملية السلام، ومثل هذا الموقف يرتب على الحكومات العربية مسؤوليات كبرى أمام شعوبها؛ فمنذ مطلع التسعينات وعملية السلام تشكل مركز السياسة العربية الرسمية من الصراع العربي ـ الإسرائيلي. وعندما ينهار المركز لابد إذن من بلورة سياسة جديدة.

* كاتب وباحث عربي في التاريخ الحديث

هل يغير حزب الله ميزان القوى في الشرق الأوسط؟

د. يوسف نور عوض *

■ مرت القضية الفلسطينية بمراحل عدة منذ ظهورها في الافق السياسي العربي، وكانت أولى تلك المراحل في الفترة التي انتهت بحرب عام ألف وتسعمئة وثمانية واربعين وهي الحرب التي مكنت للمهاجرين من البلدان الاوروبية وغيرها من طرد سكان البلاد الاصلين من ارضهم وتحويلهم إلى مجموعات من اللاجئين، وكان ذلك بسبب التراخي والتواطؤ العربي وإخضاع بعض الجيوش العربية لسلطة قادة بريطانيين وبعضها الآخر لتجارة الأسلحة الفاسدة، وانتهت هذه المرحلة بقيام الثورة المصرية في عام ألف وتسعمئة واثنين وخمسين والتي قام بها ضباط شاركوا في حرب عام ثمانية واربعين واعلنوا منذ البداية أنهم يريدون أن يثأروا لما جرى في العام الذي كرس الإحتلال لارض فلسطين التاريخية. ولكن على الرغم من الوعود الكثيرة فلم تجر حرب من أجل تحرير فلسطين، ذلك أن سائر الحروب التي جرت كانت لأهداف غير اهداف التحرير، فقد كانت مقاومة العدوان الثلاثي والذي أعتبر الحرب الأولى ضد إسرائيل تتم بسبب إقدام الرئيس جمال عبد الناصر على تأميم قناة السويس وهو تأميم لم يضرب المصالح البريطانية في الشرق الأوسط فحسب بل ألحق أضرارا كبيرة بالنفوذ الأجنبي في هذه المنطقة، حيث كانت قناة السويس ممرا حيويا للقوات العسكرية العالمية، ولكن حرب السويس لعبت دورا مهما في تحويل وجهة الثورة المصرية بعد أن تبنى جمال عبد الناصر الخطاب القومي إثر التأييد العربي الكبير الذي سانده خلال عملية المواجهة في حرب السويس ولكن على الرغم من الخطابة المفعمة بالشعارات القومية التي ميزت عهده فلم يقم عبد الناصر بعمل فعال من أجل تحقيق الوحدة العربية وكل ما فعله هو الوحدة التي تمت بين مصر وسورية وهي الوحدة التي انهارت بعد فترة قصيرة ولم يكن لها أي مدلول إيجابي في السياسة العربية وكانت ذات أهمية ثانوية إذا ما قورنت بمشروع الوحدة بين مصر والسودان وهو المشروع الذي اسقطه الرئيس جمال عبد الناصر عندما توجه إلى سورية والبلاد الغنية بالنفط من أجل تحقيق الفوائد العاجلة للشعب المصري.

وعلى الرغم من الخطابة المتكررة في تحدي الدول الغربية واسرائيل في تلك المرحلة فلم تحدث مواجهة حقيقية بين مصر ومن ورائها الدول العربية واسرائيل، ذلك أن حرب عام ألف وتسعمئة وسبعة وستين لم تكن حربا حقيقية ضد اسرائيل بل كانت في جوهرها خطأ استراتيجيا كبيرا بكون عبد الناصر حرك قواته المسلحة إلى سيناء تحت كاميرات التصوير التلفزيوني دون أن يكون لديه استعداد حقيقي أو رغبة في الحرب وذلك ما كان السبب الأساسي وراء الهزيمة النكراء التي منيت بها الدول العربية في تلك المرحلة.

وبدأت الهزائم في العالم العربي بل والتراجع عن الأهداف العربية منذ تلك الفترة ذلك أنه بعد أن كانت اسرائيل تطمح فقط لمجرد الجلوس إلى طاولة المفاوضات مع اصغر دولة عربية اصبح العالم العربي كله يرتعد أمامها ويبحث له عن مخرج حتى ترضى عنه اسرائيل والدول التي تدعمها. وكان ذلك سببا في حرب عام ألف وتسعمئة وثلاثة وسبعين وهي الحرب التي أريد لها أن تشعر العرب زورا بأنهم استعادوا كرامتهم من أجل أن تبدأ التسوية للقضية الفلسطينية، وإذا كانت الصورة قد كشفت للرئيس السادات فهي لم تكشف للزعماء العرب الباقين وذلك ما جعل بعض الحكام العرب بقيادة صدام حسين يتصدون لمحاولة السادات ونظموا حلفا لمقاطعته بل وتحويل الجامعة العربية من مصر إلى تونس وذلك ما لم تغفره الإدارة الأمريكية لصدام حسين وكان من أقوى الاسباب في تكوين استراتيجية جديدة من أجل اسقاطه مع النظام السوري، وأدركت منظمة التحرير الفلسطينية هذا الامر وبدأت المفاوضات مع الكيان الإسرائيلي تارة في العلن ـ كما هو الشأن في محادثات مدريد ـ وتارة في السر كما هو الشأن في محادثات اوسلو والهدف واحد هو جعل الفلسطينيين يصدقون الوعود من أجل إحداث انفراج ورفع الإحراج عن الدول العربية التي تريد أن تتصالح مع اسرائيل، وكان في مقدمة هذه الدول مصر والأردن اللتان أقامتا علاقات علنية مع دولة الكيان الصهيوني بينما استمرت كثير من الدول العربية تقيم علاقات سرية مع اسرائيل وتصدت الولايات المتحدة للقضية الفلسطينية وحاولت أن توهم الفلسطينيين بأن هناك حلا من خلال إقامة دولتين وان هناك خطة طريق توصل إلى هذه الغاية ولكنها خطة كان على العرب أن يصدقوها دون أن تلتزم بها اسرائيل التي ظلت طوال الوقت تشكو من أنه لا يوجد شريك كي تتعامل معه في وقت أمنت فيه أن الدول العربية القوية لن تلعب أكثر من دور الوسيط إلى ان تم التخلص من زعيم الشعب الفلسطيني ياسر عرفات لتأتي زعامة جديدة عجزت عن أن تطور الموقف مع اسرائيل أو تحدث اختراقات فيه. ولكن كانت هناك على الساحة اختراقات عربية مهمة أهمها الحرب بين إيران والعراق التي غذتها الولايات المتحدة من أجل إضعاف البلدين ثم جاءت عملية غزو الكويت التي هناك دلائل على أن سفيرة الولايات المتحدة أعطت الضوء الأخضر للرئيس صدام حسين لكي يقوم بها وذلك حتى تكون هناك حرب يمكن فيها القضاء على نظام صدام حسين. ولكن كما هو الشأن مع الأخطاء الامريكية الكثيرة فإن صدام حسين لم يسقط والذي سقط هو الرئيس الأمريكي وكان ذلك سببا قويا في أن يحمل ابن الرئيس الأمريكي الذي وصل إلى سدة الحكم في الولايات المتحدة ضغنا ضد الرئيس العراقي ويعمل من أجل إزاحته من كرسي الرئاسة دون اهتمام بالعواقب التي ستتولد عن هذا الوضع.

ولا شك أن إعلان حرب على الإرهاب قد أعطى ترخيصا مفتوحا لدولة اسرائيل كي تدخل جميع الفصائل التي تعارضها سواء كانت من منظمة التحرير الفلسطينية او من حزب الله في دائرة المنظمات الإرهابية أما هي فإن الاعمال التي تقوم بها فهي بوازع الدفاع عن النفس وهناك الكثير من الدول القوية تتبنى وجهة النظر الإسرائيلية هذه وتبرر لها مواقفها العدوانية بينما تعتبر الكفاح ضد اسرائيل عملا إرهابيا وللاسف فإن بعض الدول العربية تساعد في هذا الإتجاه ولا تريد أن تتخذ موقفا مؤيدا للقضايا الفلسطينية بل تريد أن تعتبر نفسها وسيطا بين اسرئيل والسلطة الفلسطينية وفي مقدمة هذه الدول مصر التي خرجت بشكل كامل من صف المقاومة للعدوان الإسرائيلي على الامة العربية. وهو نفس موقف الأردن الذي يتجدد في صور مختلفة كلها تصب في خانة الدفاع عن المصالح الإسرائيلية على حساب مصالح الشعب الفلسطيني.

ولقد رأينا في الآونة الأخيرة كيف أن الولايات المتحدة ومن ورائها ما يسمى بالعالم الحر ومجلس الأمن تقف مدافعة عن الرئيس الحريري وتريد أن تتوصل إلى قاتليه وتطالب بإخراج القوات السورية من لبنان. وقد صفق كثير من اللبنانيين لهذه المساعدة وتنقل كثير من الزعماء اللبنانيين في العواصم الغربية لتلقي الدعم ولكن اتضح أخيرا أن خروج القوات السورية من لبنان كشف ظهر لبنان الذي اصبح عرضة لغزو اسرائيلي سافر ولم يقف أحد من الذين دافعوا عن رفيق الحريري ليدافع عن حق الشعب اللبناني بل رأينا الولايات المتحدة تعطل اتخاذ قرار في داخل مجلس الامن ورأينا دول الثماني تعلن أن لإسرائيل الحق في الدفاع عن نفسها دون أن تحدد هذه الدول ضد من تدافع عن نفسها، وحين تحركت فرنسا والأمم المتحدة والإتحاد الأوروبي كان مطلبهم هو تسليم الاسرى الإسرائيليين مقابل وقف إطلاق النار ولا شك أنه لو تحقق هذا المطلب لكان هزيمة نكراء لحزب الله الذي قال إنه لا يتلقى وعودا من اسرائيل التي لا تفي بوعودها. ولا شك أن حزب الله قد وعى الدرس الذي لم تعه الدول العربية مجتمعة من قبل ذلك أن العقل الغربي لا يمنح المزايا للعقول التي تقبل التنازلات بل هو يستمر في رفع سقف مطالبه وهناك قول شائع في العالم الغربي يقول لننتظر لنرى من تطرف عينه اولا ، ولا شك أن المنازلة الأخيرة بين حزب الله واسرائيل أدخلت تل أبيب في مأزق كبير ولا يقتصر المأزق على روح التحدي التي تواجه بها فصائل حزب الله اسرائيل بل الاستراتيجية الجديدة التي تلغي سائر الاستراتيجيات السابقة التي اعتمدت عليها اسرائيل، فقد اعتمدت اسرائيل في السابق على جيش قوي قادر على أن يهزم الجيوش العربية مجتمعة بقوة طيرانه وصواريخه وكثافة نيرانه ولكن الاستراتيجية التي يتبعها حزب الله في الوقت الحاضر بسيطة جدا وهي تعتمد على القدرة على الوصول بواسطة الهجمات الصاروخية لعمق المدن الاسرائيلية. وذلك يعني أن اسرائيل لن تواجه جيشا نظاميا وهي في هذه الحرب لن تستطيع كسبها من الفضاء لأنها إذا دخلت لبنان فلن تعرف من أين ستأتيها الضربات كما أنها لا تستطيع أن تقدم على الدخول بقواتها إلى داخل لبنان وهذه هي نفس المشكلة التي تواجهها القوات الأمريكية في العراق الآن ، ولا شك أن هذه الاستراتيجية فتحت أعين الدول العربية على اساليب جديدة لمقاومة اسرائيل والانتصار عليها وهذا مالم تكن تريده اسرائيل ذلك أن مقاومة هذه الدولة بحسب الاستراتيجية الجديدة لا تتم بواسطة جيوش وإنما بواسطة جماعات تطلق على نفسها قوى تحرر ويطلق عليها الجانب الآخر قوى إرهاب. ولا يعني ذلك أن الدول العربية قد وجدت الطريقة التي يمكن أن تهزم بها اسرائيل لأن معظم الدول العربية في هذه المرحلة لا تفكر في هزيمة اسرائيل أو الدخول معها في مواجهات عسكرية وليس ذلك من اجل المحافظة على شعوبها بل لأن الدول العربية تسيطر عليها نخب لا ترى ان مصالحها تتناغم مع مصالح شعوبها وبالتالي فهي على استعداد لتقديم التنازلات إلى ما لا نهاية ولكن هذه الحكومات تراهن في الحقيقة على صمت شعوبها وهو صمت ليس هناك ما يدل على أنه سيكون أبديا مع تزايد أعداد السكان وازدياد نسب البطالة وإهدار الأموال العامة. ولا شك أن هذه العوامل وغيرها ستشكل تحديات كبيرة أمام النظم العربية كما ان تطور المنظمات الراديكالية قد يدخل في المستقبل القريب تحديات جديدة ولا شك أن الخطأ الإسرائيلي ومن ورائه الخطأ الأمريكي أنهما لا يحسنان قراءة الواقع قراءة جيدة وقد أتيح لاسرائيل فرصة أن تخرج من مأزقها بإعطاء الشعب الفلسطيني حقوقه ولكنها رفضت ذلك ظنا منها أن استثمار حالة الضعف العربية في المرحلة الحالية يمكن أن يحقق لها مكاسب مستقبلية وذلك وهم كبير.

* كاتب من السودان

القدس العربي
يومية سياسية مستقلة
تطبع في لندن ونيويورك وفرانكفورت وتوزع في جميع انحاء العالم

الاشتراكات:
الاشتراك السنوي 450 جنيها استرلينيا في عموم بريطانيا و750 دولارا امريكيا للوطن العربي وخارج بريطانيا بما في ذلك اجور البريد.

الناشر: مؤسسة القدس العربي للنشر والاعلان

رئيس التحرير: عبد الباري عطوان

المقر الرئيسي (لندن): 164/166 كنج ستريت، همرسميث، لندن دبليو 6 او كيو يو
هاتف: 8008 741 0208 (6 خطوط)
فاكس: 8902 741 0208 و 7637 748 0208
مكتب القاهرة: 43 شارع قصر النيل ـ الدور الاول ـ شقة رقم (2). هاتف/فاكس: 3901523 (202)
مكتب المغرب: 80 شارع فال ولد عمير شقة 7 الطابق الرابع ـ الرباط. هاتف/فاكس: 770594 (37 212)
مكتب عمان: شارع الصحافة مجمع البداد التجاري الطابق الرابع.
هاتف/فاكس: 5066089 (9626)
مكتب باريس: هاتف ـ فاكس: 57364 420 (331)

Head Office (London): 164-166 King Street, Hammersmith, London W6 0QU England
Tel: 0208-741 8008 (6 Lines) Fax: 0208-741 8902 / 748 7637
email: alquds@alquds.co.uk * Internet: www.alquds.co.uk
Cairo Office: 43 a Kasser Al Neel St, First Floor, Flat No (2).
Tel/Fax: (202) 3901523
Morocco Office: 80 Fal Ould Omeir Str. Flat No.7 - Rabat - Morocco
Tel/Fax: (212 37) 770594
Amman Office: Al Sahafa St. Badad Business Complex.
Tel/Fax: (9626) 5066089
Paris Office: Tel / Fax: (331) 420 57364

Al-Quds Al-Arabi
daily Independent News Paper
Published In London, New York and Frankfurt by Al Quds Al- Arabi Publishing LTD
Circulated in Europe, Middle East, North Africa and North America.
Editor In Chief
ABDEL BARRI ATWAN